٤ ـ إلى أرض النبوة !

[وصف وتأريخ لرحلة الوفد السوري إلى الحجاز ربيع ١٩٣٥ لفتح طريق الحج البري للسيارات]

الأستاذ علي الطنطاوي

إن من دأب العادة أنها تضعف الحس ، وتذهب بالانتباه . فالغني الذي يلبس الحرير ، وينام على السرير، ويركب السيارات، ويملك (العمارات) لا يجد لذلك كله من اللذة ما يجد الفقير المعدم، والبائس المحروم إن نال مثله ، والشبعان لا يدرك اللذة التي يتوهمها الجائع ، والصحيح لا يعرف لنعمة الصحة قدرها إلا إذا مرض، فلا لذة في الدنيا إلا في التنقل والتبدل، وألا تحمد على حال مهما حسنت في ذاتها . وهذا ما أراده الشاعر حين قال :

ولذيذ الحياة ما كان فوضى ليس فيه مسيطر أو نظام

من أجل ذلك أحسسنا حين ذهبنا إلى غداء الأمير ، ورأينا عادات لم نألفها ، وطرائق في الطعام لم نعرفها ، بلذة التبدل ، والاستمتاع بالجدة ، فما كاد يستقر بنا المجلس حتى أقبل العبيد فنوا سماطاً على الأرض ، ووضعوا عليه قصعة هائلة كان يحملها منهم اثنان ، وقد ملئت رزاً وألقى فوقه خروف كامل بيديه ورجليه ورأسه ، إي والله . . . كأنهم (والله أعلم) خافوا أن نشك فيه فنحسبه دباً أو فيلاً أو قطاً ، فأبقوا على الرأس دليلاً قاطعاً على أنه خروف أصيل من أمة الضأن

وكان الخروف مفتوح البطن ، ناهص الطرف ، فأخذتني الشفقة عليه ، وتوهمت أنه ينظر إلينا ، وأنه ... ... ثم رأيت أن لا مجال للوهم ولا للخيال ، وأن الوقت لا يتسع للأدب ، لأن القوم أحدقوا بالقصعة وشمروا عن سواعدهم ، ونظروا شزراً فمن يقدم على معركة ، فخشيت أن يذهبوا بالرز واللحم ، ويبقى لي الخيال والوهم ، ومتى أفاد الخيال جائعاً ، أو أجدى الأدب على إنسان ؟

وكان أصحابنا يدورون بعيونهم يفتشون عن ملعقة أو سكين أو شوكة فما وجدوا شيئاً من ذلك ؛ وأبصروا القوم يأخذ أحدهم قبضة من الرز ، فيديرها في كفه ، ويعصرها ، حتى يقطر منها السمن ، ويحركها كما يحرك اللاعب الكرة قبل قذفها ، حتى إذا اطمأن إلى أنها صارت كالقنبلة ، قذف بها في حلقه ، فما استقرت بإذن الله إلا في معدته ، لا تقف في الفم ، ولا تمسها الأسنان ... وطفق أصحابنا ينظرون إليهم ويعجبون ، ثم أقبلوا يأكلون كما يأكلون ، ولبثت منتظراً أقول لنفسي وأنا أحاورها لأقنعها : من أين تأكلين إذا لم تجاري وتماشي ، وتستعدي لقبول كل ما تأتي به الحال ؟ وإني لفي تفكيري ، إذ حانت مني التفاتة ، فوجدت القصعة قد تكشفت ، والخروف المسكين قد تناثر لحمه ، وبدت عظامه ... فمددت يدي آكل كما يأكلون ، وقد علمت أن شر طعام خير من الجوع ، والرز يتفلت من بين أصابعي ، والسمن يملأ كفي ، فإذا رفعتها إلى فمي ، نقط من مرفقي ، ولم يكف القوم ما كانوا قد وضعوا من السمن ، بل عمدوا إلى كؤوس يحملونها ، فأفاؤوها وصبوا ذلك أمامنا ، حتى ما نستطيع من كثرة الدهن أن نأكل ، ولم يكن الرز ليستدير في يدي استدارته في أيديهم ، بل كان يدخل بين أصابعي ، حتى أضطر إلى إدخالها جميعاً في فمي ، وغسل وجهي كله بالسمن ...

وانقضى الطعام . ولا تسألني : أشبعت أم لم أشبع ، كيلا يطول سؤالك كما طال في هذه الرحلة عطشي وجوعي

ثم جاؤونا ونحن في مجالسنا بعاست عليه مصفاة قد وضعوا فوقها قطعة صابون وإبريق يصبون منه على أيدينا ، على نحو ما كان يصنع في دمشق قبل عشرين سنة ، ولم تكن تلك طريقتهم في الغسل ، وإنما يكون مثلها في مجالس الأمراء والمتحضرين من العرب . أما البدو ، فيجزئهم الرمل . وقد بلغنا عن بعض البدو في جهات الشام ، أنه إذا كانت وليمة أو غداء كالذي نصف ، خرج المضيوف فسحوا الدهن الذي في أيديهم بباب الخيمة . وعندهم أنه كلما ازداد عليها من الدهن ازداد كرم الرجل وفخاره ...

* * *

ثم خرجنا نجول في البلد ، وقد علمت أي شيء هذا البلد فاستقريناه كله في ساعة ، ثم دخلنا المسجد ، فرأيناه دائي السقف قائماً على عمد دقاق من جذوع النخل ، جدرانه من الطين ، وأرضه مفروشة بالرمل ، لا بساط ولا (سجادة) ولا حصير ، فسألنا متعجبين ، فعجبوا من عجبنا ، وأنكروا سؤالنا ، وكأنهم استخفونا واستجهلونا ، لأن من المقرر عندهم (كما علمنا بعد) ، أن هذه هي سنة السلف ، وعليها مساجد نجد كلها اليوم . وأنا رجل سافي وهابي ، ولكنني لست من المتمسكين بحرفية النصوص ، ولا ممن يأخذها بلا فكر . وأنا أفهم أن المسجد في الإسلام

يستحب فيه الخلو من الزخارف التي تشغل عن الصلاة ، وتطلب فيه (البساطة) ، ولكن البساطة مردها إلى العرف ، وليس مدارها على الرمل والطين . والذي أفهمه أن فرش المسجد بالبسط النظاف ، وتحوير جدرانه أو دهنها بلون واحد ، واتخاذ مكان فيه للأحذية حتى لا توضع حيث توضع الجباه ، ومدافىء للشتاء إذا كان البلد بارداً ، ومراوح كهربائية في البلد الحار ، وإقامة مكبر للصوت في مثل مسجد دمشق الذي يجتمع فيه اليوم لصلاة الجمعة أكثر من عشرين ألف مصلٍّ . كل هذا لا ينافي سنة (البساطة) ، وإن لم يفعله السلف للجهل به أو لعدم الحاجة إليه . ومصيبتنا نحن المسلمين في هذه الأيام أننا لا نعرف التوسط ولا الاعتدال ، فمنا من ينطلق وراء عقله وحده لا يتقيد بوحي ولا كتاب ، ومنا من يدع العقل والكتاب والسنة ليفكر بعقول من مضى من فقهاء القرن التاسع والعاشر ، أو يأخذ من الكتاب والسنة ، ولكنه يفهم بالحروف والألفاظ ويدع ما وراءها من المجاز والإشارة والحكمة والمصلحة ...

* * *

عدنا إلى الدار التي منحونا مفتاحها ، نتحدث ونسكت ، وننام ونفيق ، ونقرأ حتى نمل ، ونمل فنعود إلى القراءة حتى تصرّم النهار ونحن نظنه من ثقله شهراً . وقد عرضت مرة في بعض مقالاتي إلى تحليل الحس بالحياة ، فكان من رأيي أن الحياة أصعب شيء على الإنسان ، وأنه لا يستطيع أن يحملها ، فهو يقطعها أبداً بحديث أو مطالعة أو عمل ، أو ما هو من ذلك بسبيل ، فإذا خلت حياته من شيء يشغلها عادت هماً وحملاً ثقيلاً . وكذلك كانت حياتنا ذلك اليوم في (قريات الملح) . وكنا قد سألنا الأمير دليلاً ، وأقمنا ننتظره حتى جاء ، وإذا هو سيد من سادات (الشرارات) ، مُعمَّر تلك الديرة ، والعشيرة صاحبة النفوذ فيها اسمه (صُلَبي) ؛ ولي في صفته كلام في أول قصة (أعرابي في حمام) ما زدت فيه على الحقيقة وإن كنت قد ألقت القصة على الخيال ؛ فليرجع إليه من شاء تتمّة

وقد أبدلنا الله بدرهمنا ديناراً حين صرف عنا الحاج غراباً الجاهل الجامد ، الحضريّ الثقيل ؛ وجاءنا بهذا الأعرابي الفكه الظريف الذي أخذنا منه فوائد كثيرة ولمسنا في صحبته السلائق العربية لمساً : الذكاء والوفاء والإباء ، والمنطق البليغ والذاكرة القوية والجواب الحاضر والصبر والإيثار . وأشهد لقد أحسن إلينا أمير (القريات) حين اختاره لنا ، فلما حضر تجددت عزائمنا ، فأعددنا ثقلنا ، وذهبنا نودع الأمير ونستأنف السفر ، وكان أهل البلد مجتمعين حول الدار التي نزلناها ، وكأن مجيئنا من الحوادث الكبرى في تاريخ البلد . فمشينا بينهم ، ودخلنا الحصن ، فوجدنا الأمير قد أعد لنا مجلساً في رحبته ، يشرف على الفضاء ، ودعانا إلى المبيت ، وألحف علينا ، وذهب يلتمس إلى إقناعنا الطرق ، ونحن نعتذر ونتملص ، لا أدري أكان ذلك حياء من الأمير أن نطيل المكث في ضيافته ، أم كراهية البقاء في هذه البليدة الساكنة سكون المقبرة ، الخالية من كل شيء يشغل أو يسلي ، أم حماقة وطيشاً ولعل ذلك هو الأقرب ... فلما يئس منا عرض علينا العشاء فأبينا واجتزأنا بالشاهي نشربه إذ لم يكن منه بد ، وأخرجنا مما كان معنا حلوى من حلويات دمشق التي ملأت شهرتها الآفاق ، وعجزت عن صنع مثلها أيدي الطهاة ، فعرضنا منها على الأمير فطعمها فأعجبته وقال لنا ، إنه ما ذاق مثلها ، وخير ذلك ألا يذوقها فيعوده مذاقها الترف والنعيم ، ويسلبه روح الصحراء

وانتهى المجلس مع الغروب فقمنا إلى الصلاة ، ثم استقبلنا البادية القاحلة حيث لا نجد حاشا تبوك والعلا ، داراً مأهولة ، ولا منزلاً معموراً ، ولا نجد إلا الرمال والصخور والشمس الملتهبة ، والفضاء الأرحب ، حتى نصل بمشيئة الله إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم .

* * *

سرنا فما جاوزنا غير ساعة حتى أظلم الليل ، وتوعرت الأرض ، وتعذر المسير ، فأمرنا الدليل بالنزول ، فنزلنا وجعلنا من عادتنا بعد ذلك ألا نسير إلا نهاراً ، وإن اضطررنا إلى مشى الليل اخترنا الإدلاج من آخره على السرى من أوله ...

وكان نزولنا في أرض رخوة ما ألقينا لها بالاً ، فلما نصبنا الخيمة وبسطنا البسط وقعدنا إذا بها تمصر ماء ، وإذا هي سبخة من تلك السباخ التي يستخرج منها الملح ، فتفرقنا وأبعدنا رجاء أن نصيب أرضاً خيراً منها فما وجدنا ، فاسترجعنا وندمنا على ترك البلد ، والسفر ليلاً ، والإعراض عن دعوة الأمير ، وأمضينا الليل على شر حال ، منا من نام وسط الرحل ، وما السبخة إلا وحل . فأصبح يشكو الرثية (الروماتزم) أو يحس الأذى في ظهره ، ومنا من لبث الليل كله في السيارة لا يستطيع أن يتحرك أو يمد رجله ، ولقينا من الشدة ما ذكرنا معه بالخير ليلة (أم الجمال)

فرفرة

هذا الانسان... أوجد الحضارات

« السمك والوحش والطير يأكل بعضها بعضا ، لأنها حرمت العدالة ، أما الانسان فقد منحه زيوس إياها وهى خير ما يمنح . . . »

أما أنا فأقول لكم لم لا يأكل الناس بعضهم بعضاً

فى زمان سلف ، قديم كل القدم ، وفى مكان لا أعرفه تماماً ، كان يعيش أبو البشرية آدم وأمها حواء والابن البار هابيل ، والابن العاق قابيل

وفى يوم من الأيام ، بعد أن مل قابيل العمل وزهدته نفسه ، واستصغرته ، جلس على مرتفع من الأرض ، ومرفقه إلى ركبته ، وقد أسند رأسه إلى قبضته الضخمة . جلس قابيل مهموماً قبل أن تخلق الهموم ، مفكراً قبل أن يخلق التفكير . لقد مل العمل ومل الحياة ، وضاقت الدنيا على سعتها ، فلم تعد تحقق شيئاً مما تريد قابيل . ها هو ذا يعمل كل يوم . يذهب فى الصباح إلى الأرض يصلحها ويبذر الحب فيها ، وإذا أعوزها الماء حمله إليها من أماكن بعيدة ، ثم إذا هو رأى حيوانا يعبث بماشية يرعاها أخوه ، سعى إليه وأرداه

كل شىء أمام قابيل سهل ميسور . إنه ما حاول يوماً عملاً واستعصى عليه . كل ما يراه خاضع ليده القوية . الأرض تتفتت فى يسر وهو يضربها لتفلح . والحيوانات باتت تخاف رؤيته . والأمطار إذا شحت استطاع أن يحمل الماء من أماكن سحيقة دون أن يتعب ... كل شىء سهل ميسور إذا تناوله قابيل . فأية حياة فارغة هذه !

وفى تلك اللحظة مر هابيل يسير كعادته دائماً فى سكون وبطء ، لاهياً عن كل شىء بشىء لا يفهمه أخوه ؛ إنه يأخذ الحياة كما وجدت ، لا يطلب جديداً ولا يتعب نفسه فى هذا الطلب ، ولا يحس مللاً كما يحس قابيل

ثم هناك كبش هابيل ، لقد قبل عند ما قدمه قرباناً ، فنزلت النار من السماء والتهمته ، بينما لم يرفع زرع قابيل الذى قدم كما رفع كبش أخيه

وبعد ! فلابد إذن أن يكون هابيل شيئاً عظيما ، فقربانه قد قبل بينما لم يقبل قربان أخيه ؛ وكلاهما ابن لآدم وحواء . وهو لا يفكر كما يفعل قابيل وإنما هو لاهٍ راضٍ . إنه إنسان

رب ليل بكيت منه فلما صرت فى غيره بكيت عليه

* * *

تبدل علىّ كل شىء مذ فارقت (القُريّات) ، فلقد كنت قبل أن أصل إليها أفكر فيها وأراها غاية سفرى ، فصرت أمشى من بعدها لا أعرف لى غاية إلا تبوك ، وأين نحن من تبوك حتى نفكر فيها ؟ وكيف وبيننا وبينها أيام وليال ؟ وكنت آسف على فراق دمشق فصرت لا أفكر فيها إلا لماما ، وأحسست كأنى منقطع حقاً من العالم ، فلا بشر إلا الرفقة التى أصحبها ، وليس إلا الرمل والتلال والسراب مشهد نراه ، وكان عملنا كله التدقيق فى الأرض ، والانتباه إلى الدليل ، لنجتنب الخوض فى رملة ، أو المرور على شعب ، أو الالتقاء بصخرة . ولقد كنت أنظر تارة إلى هواننا على الصحراء ، وأفاضل بين صغرنا وجلالها ، وفنائنا وبقائها ، فأحس الصغار ، وأشعر بالعجز ، ثم أنظر فلا أرى فيها إلا إيانا قد انفردنا بين شرقها والغرب ، وانبسطت تحت أرجلنا وامتدت إلى الأفق البعيد ، ونحن نغزوها ونوغل فيها ، ونحمل حرها وبردها ، ولا نبالى شمسها ولا رملها ، فتغمر نفسى القوة ، وأرفع رأسى فخاراً ، وأتيه زهواً . . .

وكنا نسير النهار كله ، سيراً بطيئاً . وما أكثر ما نقف نخرج سيارة غاصت فى الرمل ، أو نتحرى خير الطرق ، أو ننظر فى (الموصلة) لنتبع أبداً الجنوب ، وكنا أبداً على استعداد للوثوب من السيارة . فإذا مالت الشمس واصفرت ، نزلنا فنصبنا خيمتنا وأكلنا وشربنا الشاى ... وأنا أحلف أنى على ولعى بجمال الطبيعة ، وارتيادى الجبال والأودية ، ووقوفى بالعيون والينابيع ، ومقامى على الشواطئ وحيال الشلالات ، ما رأيت منظراً أجمل ولا أجل ولا أحفل بالعظمة والفتنة من أمامى الصحراء ، حيث تضطجع على تلة من التلال ، ثم تمد بصرك إلى الجهات الأربع فلا يحجزه حاجز ، ولا يقف فى سبيله شىء ، فترى الشمس وهى تغيب فى الأفق الغربى ، وظلام الليل وهو (يشرق) من الأفق الآخر ، والنجوم وهن يطلعن فى السماء الصافية ، وتحس بلطف الليل ورقة نسيمه ، كما أحسست بجلال النهار وحدة شمسه ، ثم تقوم مع الفجر قوياً نشيطاً ، قد قبست من روح الصحراء روحاً جديداً ، لتستقبل الحياة بعزم جديد !

علي الطنطاوي